

موسيقى السودانية ومريديها

يرتبط شرطياً بالنشاط الموسيقي. فتعكس التوبة التي قال بها بعض محترفي الموسيقى بالسودان التاركين لهذا النشاط حالة التنازع والصراع الداخلي التي ظلت تلازم هؤلاء النفر حتى لحظة اتخاذ القرار والهروب للتصوف بالتوبة. ويكون النوع الآخر من الهروب، والمتمثل في الانغماس في المسائل المادية المذهبة للعقل، أحد العناصر السالبة التي تتجمع في نهاية المطاف لدى بعض الفئة المعنية بهذه الدراسة لتسهم مع غيرها من العناصر العضوية والعقدية - الاجتماعية في اضطرابهم نفسياً.

وتصل ضغوط المجتمع على محترفي النشاط الموسيقي قمتها حين الحديث عن عازفي المزامير. وذلك فيما يُعتقد من ارتباط هذه المزامير والصفير الذي تصدره تحديداً بالشياطين. ويذهب البعض إلى أن المزامير ممنوعة أو محرمة على حد اعتقاد بعض المسلمين. وحتى وإن لم يأخذ كثير من هؤلاء العازفين هذا الاعتقاد حينها مأخذ الجد وظلوا على ممارستهم تلك، إلا أن الأمر يكون مختزناً في اللاوعي ويتم استدعاؤه لا شعورياً حال حدوث اضطرابات. وإن كان مرد تلك الاضطرابات أسباب عضوية ناتجة عن الإفراط في التمارين، أو أخطاء الممارسة، أو الأصوات الحادة الصادرة من المزامير نفسه والمؤثرة على الجهاز السمعي.

يجهل هذه المسائل جل محترفي العزف على المزامير في السودان لقصور أو انعدام منهجية التدريب على هذه الآلات. وهذا يعني أن جلهم يفرطون على الدوام في النفخ عند محاولتهم العزف على الأصوات العليا لآلة موسيقية يمتد مداها لواحد وعشرين صوتاً. ويقود هذا الأمر بدوره إلى إرهاق الجهاز التنفسي، حيث تعمل الرئتان كمنفاخ يمول الفم بالعمود الهوائي، بينما تُوظف الشفة العليا كريشة مفردة بحيث تنبذب في ارتباط مع حافة الفتحة الموجودة على رأس المزامير بغرض إصدار الصوت الموسيقي.

ولا تواجه هذه الإشكالية لدى عازفي المزامير التقليدية للأسباب التالية: أولاً لمحدودية المدى الصوتي والذي لا يتعدى في بعضها أو جلها خمسة أصوات. ثانياً لاستخدام أسلوب «التباعض» في حال المزامير التي يتجاوز مداها ذلك، حيث يقوم كل عازف لهذه المزامير بإصدار صوت واحد فقط لتتمكن المجموعة المكونة من عشرة عازفين من بناء خطين لحنيين متوازيين. فلا يكون العازف مضطرباً في مثل هذه الحالة للإتيان بالصوت وقراره أو جوابه من ذات المزامير أو البوق. ثالثاً للتدريب على تقنيات النفس الإرادي مع وضع المزامير المصنوعة من القرع في الماء حتى يعمل تمدد القرع على إغلاق الفجوات التي يمكن أن يتسرب منها الهواء ما يفضي إلى إرهاق الجهاز التنفسي للعازف.

الكفر هي: الفجة عند الكبير والصفير عند الصغير. ففي زمن الجاهلية كانت قريش الكافرة تطوف بالبيت عراة تصفر وتصفق، و(المكاء) الصغير، والتصدية التصفيق، لقوله تعالى «وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مَكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ» (الأنفال: الآية 35). وذلك هو سبب اعتبار العرب الصغير إغواءً من الشيطان حتى اليوم.

أثر الموسيقى والزمر على الدماغ وأعضاء الجسم الأخرى

أبان وليد الشويكي أن الباحثين قد توصلوا إلى أن تعلم الموسيقى، ولو كان لفترة محددة، يؤثر على وظائف المخ عبر إعادة ضبط استجاباتها للترددات الموسيقية. وبناءً على هذه النتائج أدرك الباحثون أنه صار ممكناً الآن تحديد النغمات أو الترددات المهمة لكل كائن حي (أي المؤثرة على أمنه وغذائه وما إلى ذلك) من خلال رسم الخريطة الترددية للقشرة السمعية، عن طريق رصد النغمة الموسيقية التي تحدث أقصى استجابة من معظم خلايا القشرة السمعية. فمخ الإنسان، كما أبانت تلك الأبحاث، يتعامل مع كل من الموسيقى والكلام بصورة مستقلة. أي أن الموسيقى تُوجد بالمخ في مكان غير الذي يوجد به الكلام. فإن حدث اضطراب للإنسان، فقد تختل لديه ذاكرة الكلام وتبقى ذاكرة الموسيقى متقدة، بحيث يمكنه العزف على آله الموسيقية أو أداء ما يحفظ من أغان.

ويرى البعض أن هناك ثمة علاقة واضحة بين التأليف الموسيقي والجنون، حيث يعمل هذا التجريد في الموسيقى على إخراج منتجها من عالم الواقع إلى عوالم يخلقونها هم لأنفسهم ويعيشون فيها. فقد ذكر أحمد عكاشة أن الدراسات التي قام بها الأطباء النفسيون تبين مدى انتشار المرض العقلي بين المؤلفين الموسيقيين، وخاصة الدراسة التي أجراها «ترثون» في كتابه المعنون: المرض العقلي والموسيقى. ويرى أخوان الصفا: «أن كل جنس من أجناس الحيوان إنما يأنس ويُسّر بما كان من نغمات جنسه ويجتمع به ويألفه بحسب ما جرت عادته وألفت طباعه، وينفر من صوت آخر يكون من جنس غيره ولم تجر عادته بسماعه ولا ألفتة. وكذلك جميع الأمم من أصناف الناس».

كيف اضطرب عازفو المزامير بالسودان؟

يمثل إرث الثقافة العربية الإسلامية والذي صادف بواكير محترفي الموسيقى في السودان، ولكنه ظل حاضراً حتى يومنا هذا، عملاً مؤرقاً للبعض ويأخذ مساحةً من تفكيرهم. فيؤدي أحياناً، ومعه عوامل أخرى، إما إلى الهروب بترك النشاط الموسيقي والانغماس في عالم التصوف، أو الهروب إلى عالم المسكرات والمخدرات، كأنما هذا السلوك صار

أن ابن خلدون قال: «إن العرب شغلتهم الرياسة وما دُفعوا إليه من القيام بالملك عن القيام بالعلم والفن والنظر فيهما واستنكفوا عنهما، ودفعوهما إلى من قام بهما من الموالي الذين كان الشطر الأكبر منهم عجماً». صحيح أن الملوك كانوا في ذلك الزمان، وربما لايزالون، يستنكفون عن الاشتغال بالفنون، وأن ذلك الأمر لم يقتصر فقط على العرب والمسلمين. ولكننا نرى أن أمر العرب مع الموسيقى لم يكن انشغلاً، بل موقفاً اجتماعياً متكاملاً. إذ لم يكن كل العرب من الملوك يتولون الرياسة. لقد كان الأمر مرتبطاً بالمكانة الاجتماعية للذين يمارسون الغناء والموسيقى. ففي الماضي، كما ورد في العقد الفريد «كان أصل الغناء ومعدنه في عبيد أمهات القرى من بلاد العرب ظاهراً فاشياً، وهي المدينة والطائف وخيبر ووادي القرى ودومة الجندل واليمامة، وهذه القرى مجامع أسواق العرب».

جعل ماضي الثقافة الموسيقية العربية وإرثها الاجتماعي المسلمين ينظرون إلى الموسيقين بدونية وكره يصل حد التطرف. فقد اعتبر الاشتغال بالغناء على الدوام سفهاً ترد به الشهادة. وفي هذا قال الشافعي: «الغناء مكروه يشبه الباطل ومن أكثر منه فهو سفيه ترد شهادته».

المعتقدات حول الموسيقى والمزامير بالسودان

يُعتبر المعتقد حول الموسيقى أحد العناصر الرئيسية المكونة للثقافة الموسيقية والتي تشتمل بجانب ذلك على التنظيم الاجتماعي والمخزون الموسيقي والثقافة المادية. ويُعنى المعتقد حول الموسيقى، كما يرى جيف تيتون Titon، بالإجابة على عدة تساؤلات منها: ماهية الموسيقى، وهل هي من صنع الإنسان أم إلهام؟ هل هي مفيدة للإنسان، أم مضرة؟

وتمنع جل المجتمعات السودانية الصبية عن الصفير على وجه العموم والصفير عند مغيب الشمس على وجه التحديد. ويُعتقد أن حلول الظلام مرتبط بظهور الأرواح الشريرة كالجن والشياطين، ويسهل الصفير أمر استدعائها. فقد ذكر بعض عازفي المزامير في المقابلات التي أجريناها معهم أن آباءهم إما اعترضوا على تعلمهم العزف على المزامير ابتداءً أو منعوه من ممارسة عزفها بالمساكن بدعوى أنها تستدعي الجن والشياطين. وهناك اعتقاد شائع أن العزف من صوت الجن ويمكن استحضارهم بصوت العزف. ويُصرح بأن الآلات الموسيقية من أكبر الوسائل التي يغوي بها الشيطان الرجال تأثيراً. فالآلة الموسيقية هي مؤذن الشيطان يدعو لعبادته.

ويعتبر كثير من قاطني جنوب النيل الأزرق أن الصفير بالفم رجس من عمل الشيطان ويحضون على تجنبه. كما يُعتقد في مجتمع القارة بغرب السودان أن قمة